كتاب الشهر 2 2005

الخارجون عن القانون يصنعون العالم

محمد جربوعة

المركز العالمي

لدراسات وأبحاث

الكتاب الأخضر

الخارجون عن القانون
يصنعون العالم
2

الطبعة الأولى 2005

الإيداع القانوني :
الترقيم الدولي رد . مك ISBN 9959-26-130-1
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد
دار الكتب الوطنية
بنغازي - ليبيا

www.greenbookstudies.net
هاتف 9090509 - 9096379 - 9097074
بريد مصور 9097073
البريد الالكتروني nat_lib_libya@hotmail.com

تنفيذ فني :
القبس للأعمال الفنية

الخارجون عن القانون يصنعون العالم 2

■ بقلم: محمد جربوعة

قبل المدخل

لم أقل أنهم يصنعون التاريخ ، لأن الدخول إلى التاريخ قد يكون بحدث واحد منفرد ، يشتهر ، بينما صناعة العالم تحتاج إلى الدخول للعبة الكبار ، و ممارسة التغيير عبر سلسلة من الأحداث التي قد تدوم قرنا .

مدخل

ما يحدث في العراق و يلقي بظلاله على العالم كله لا يجب أن يقرأ على أنه مجرد حدث ، ذلك لأن الأحداث التي تغيّر مجرى التاريخ ، و ترتسم مفاصل في تحولاته و منعطفاته الكبرى لا بد أن ينظر إليها بما تستحقه .

إن كلمة الحدث قد تعني إطلاق الشرطة النار على عشرة متظاهرين ، كما قد تعني أيضا تدمير الأمريكيين لهيروشيما وحسم المعركة مع اليابان بذلك .

هناك الملايين من الأحداث التي يشهدها العالم كل أسبوع ، وبعض هذه الأحداث ينتمي إلى حقبة سابقة ، هي موجودة اليوم لكنها تسير نحو نهايتها ، أما البعض الآخر فينتمي إلى حقبة قادمة هو بالنسبة لها مجرد إرهاصات و مقدمات .

و ليست الأحداث هي التي تصنع التاريخ ، بل الأشخاص الذين يقفون وراء تلك الأحداث أو أولئك الذين يحسنون استغلالها .

هناك اليوم أحداث كثيرة يمر بها العالم ، و هي تندرج في إطار واحد و تحت عنوان واحد ، هو (التغيير) ...

إنها أحداث لا يمكن إدراجها في إطار الحقبة الماضية التي هيمنت فيها القوى الغربية و في مقدمتها الولايات المتحدة على المشهد ، هذه أحداث مختلفة لا تنسجم مع مشهد الحقبة الذهبية الأمريكية .

سنلاحظ واضحاً مقدار الجرأة التي تنامت بعد أحداث 11 أيلول /سبتمبر 2001م .

هناك اليوم جرأة كبيرة على أمريكا ، تصل إلى حد الاستخفاف بها ، و بالتالي بداية تجذر قناعة إمكانية ، بل وسهولة إيقاع الهزيمة بأمريكا .

و الذي يقوم به مقاومو أمريكا اليوم ، و كذا المراقبون لمقاومتها ، هو اكتشاف مفاتيح و كلمات السر في لعبة مواجهتها .

لهذا لا بد من تسجيل ملاحظة مهمة و هي أن الولايات المتحدة اليوم تعيش مرحلة التراجع و الإنهيار .

بل سنذهب أبعد من هذا لنقول أن الغرب كله ينحسر ، و نقول الغرب لأن المشروع الغربي ظهر موحداً في الشرق الذي هو مصدر المقاومة اليوم .

ظهر المشروع الغربي استعمارياً ، صليبياً ، ظالماً ، لا فرق فيه بين أنجلوكونييه و فرانكوفونييه .

لا فرق فيه بين فرنسا أو إيطاليا أو أمريكا أو بريطانيا .

فقد تشكل العقل العربي و الإسلامي تجاه هذا الغرب في فترات شهدت الاستعمار المباشر للشرق من طرف الغرب ، كما تنامت الأحقاد بعد ذلك تجاه هذا الشرق الذي كان يوصف عند الإسلاميين بالصليبي ، و عند القوميين بالإمبريالي .

و تاريخياً لا يمكن فصل المشروع الأوروبي عن المشروع الأنجلوكوني (الأمريكي و البريطاني) إلا في الحرب الأخيرة

على العـراق ، حـيث وقـفت بعض دول أوروبا مـوقـفـاً مـعـارضـاً للولايات المتحدة ، أما قبل ذلك فكان الإيقاع الأوروبي منسجماً مع الإيقـاع الأمريكي ، و قـد يخـتلف القطبـان الغـربيـان حـول مصالحهما ، لـكنهما يجتمعـان في كون هذه المصالح لا يمكن أن تكون إلا عبر إذلال العرب و المسلمين .

لهذا استـقر العقل العربي و الإسلامـي على أن المشروع الغربي واحد ، و هو التـعبير الذي تعبّر عنه الكثير من القوى بـ (الكفر ملة واحدة) .

لذلك فـحين نتـحدث عن تراجع الولايات المتـحدة ، فـإننا في الوقت ذاته نعني تراجع الدول الأوروبيـة .

و بعض الباحثين الغربيين أنفسـهم يقرون بأن هناك حالة تنتاب الغرب ، هي شبيهة إلى حد كبير ببدايات الانهيار .

و قـد خـرج للسـوق مـؤخـراً كـتـاب مـثـيـر للبـاحـث الفـرنسي السيـاسي والاقتـصـادي، نيـكولا بافـاريه، كتاب عنوانه /فـرنسـا التي تتـداعى/.. وقـد أثار الكـتـاب ضـجـة كـبيـرة في الأوسـاط الثـقـافـيـة والسـيـاسيـة الفـرنسـيـة ونشرت حـولـه مـقـالات وردود وندوات تلفزيونية. وقد أصبح الكتاب من الكتب الأكثر رواجاً .

إن الغـرب ليس هو الله ، لذلـك كـان من المؤكـد أن تكـون له نهـاية ، لكن هناك من الأحداث مـا يسرّع النهـايات ، ليـصنع ما يسمى عند الفيزيائيين بـ (السقوط الحر) (chute libre).

هذا الأمـر يدعـونا اليـوم إلى اكـتـشـاف الحـدث الذي يمثل (قانوناً) في هزيمة الولايات المتحدة الأمريكي ، و العدو عموماً .

و حين نتأمل أحداث السنوات الخمس الأخيرة ، ستسقط علينا تفاحة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 ، وسنهب صارخين: (وجدناها ... وجدناها) .

حين نتحدث عن قانون هزيمة ، فإننا بلا شك نقصد ذلك الشيء الذي كلما أعيد إنتاجه أو حدوثه ، كلما حصلت نتائجه .

في ألف مرة تلقي تفاحة إلى أعلى ، ستعود التفاحة إلى يدك، أو على الأقل باتجاه يدك ، ألف مرة ، لا . 999

هذا قانون،و11 أيلول/سبتمبر حدث لم يصنع القانون لكنه كشفه

كانت هناك أحداث كثيرة قبل11 أيلول/سبتمبر تصب في القانون، لكن القراءة السيئة لها خدعت الناس وأبعدتهم عن الحقيقة .

الانتفاضة الفلسطينية كانت حدثاً يصب في القانون ، لكن الملاحظين لم ينظموها في إطار منضبط لتكون جزءاً من قانون ، لقد نظروا إليها على أنها مجرد جزيء منفصل ، لا يندرج ضمن قاعدة و لا يأتلف مع مشابه .

اليوم يمكن جمع أحداث عدة لاكتشاف القانون ، هذه الأحداث هي (انتفاضة الطفل الفلسطيني ، وأحداث 11 أيلول /سبتمبر2001م ، و المقاومة في العراق) .

كل هذه أجزاء لمنظومة منضبطة ، نتيجتها هي : (المواجهة الجماهيرية للعدو تعني هزيمته) .

و قد عبرت عن هذا في كتاب آخر بـ (القوة البديلة) ، و هي (قوة الضعف) حين تهزم القوة بمعناها الغربي .

أنا لا أقول أن طفل الحجارة يهزم الدبابة ، و لكنني أقول أن أطفال الحجارة يهزمون الدبابة .

هناك فرق بين طفل و أطفال .

الطفل ليس عنصر قوة و لا انتصار ، عنصر الانتصار هو (المجموع) (الجماهير) .

إن هناك تخبطاً سياسياً اليوم ، ناجماً عن تخبط فكري ، والذين لا يفهمون المرحلة و لا يستوعبون معطياتها ، لا يمكن أن يبنوا موقفاً عملياً سياسياً أو اقتصادياً أو أمنياً أو ... صحيحاً ... و هذا نلاحظه اليوم عند الكثير من الدول و القوى و الهيئات و حتى الشخصيات .

ففي الوقت الذي تعيش فيه الولايات المتحدة تراجعاً كبيراً ، نرى البعض يأخذ درساً عكسياً مما يحدث في العراق .

فهل الواجب اليوم الارتماء في المشروع الذي ينادي به الليبراليون في الوطن العربي و البلاد الإسلامية ، بوجوب الانبطاح للولايات المتحدة و الارتماء في أحضانها ، أم أن الواجب هو الالتزام بخط المواجهة فكرياً و سياسياً ، لأنه لم يعد بمقدور أمريكا فعل شيء .

سنفترض أن دولة ما لم تنصع للتهديدات أو الإملاءات الأمريكية ، فما الذي يمكن أن تفعله أمريكا على ضوء درس العراق .؟

هل أمريكا قادرة اليوم على المغامرة مرة أخرى و احتلال أي

بلد ، بعد أن التقطت كل الشعوب درس العراق في أن مقاومة أمريكا تعني دحرها و هزيمتها .

الشعوب لا تتحرك إلا بنماذج ، و المقاومة العراقية اليوم نموذج لكل الشعوب ، لذلك لا يمكن الحديث عن احتلال أمريكي إلا مع الحديث عن مقاومة شعبية .

هذا سيضعنا أمام حقيقة ، هي أنه لا مستقبل للنخب الليبرالية التي تمثل الطابور الأمريكي الخامس في المنطقة ، لأنها جزء من المشروع الأمريكي الذي يلقى مواجهة كبيرة ، إن على المستوى الفكري و إن على المستوى العسكري .

لكل هذا و لكثير غيره يكون من الواجب فهم معطيات المرحلة، و بالتالي متطلباتها .

إن أهم ملمح يمكن ملاحظته في المشهد اليوم ، هو أن مصطلحات (التمرد) و (الخروج عن القانون) قد رجعت لتأخذ مكانها مرة أخرى في الصورة .

لقد أرادت الولايات المتحدة و الغرب عموماً تسويق نظام عالم جديد ، كما تم تسويق مفهوم (القانون الدولي) بمعنى أعرج غير مستساغ ، و وضعت في إطار ذلك منظومة مفاهيم مفروضة من طرف القوى العظمى ، كما تم تحديد السقف الذي لا يمكن تجاوزه من طرف الأفراد و المجموعات و الدول ، و حددت تبعاً لذلك منظومة (العقوبات) التي تسلط على كل من يخرق السقف أو يحاول تجاوزه .

ومن تلك العقوبات الحصار و الحظر و الضربات العسكرية ، وأخيراً (الضربات الإستباقية).

و لوحظ أن كل هذه المنظومات و النظم كانت جزءاً من (ظلم) الخصم لا من (عدل) الحكم المفترض .

بل إن الحكم الذي هو الأمم المتحدة و مجلس الأمن تحول هو أيضا ليكون جزءاً من (العدو)، لذلك يستقر اليوم في العقلية العربية و الإسلامية أن الأمم المتحدة تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية و أن مجلس الأمن كيان صهيو صليبي لا غير .

لذلك قلنا أن الغرب بكل مؤسساته و أنماطه و دوله ومشاريعه و قوانينه ارتسم في العقل العربي و الإسلامي كعدو متكامل لا يستثنى منه جزء و لا قطعة .

ظهرت مصطلحات التمرد و الخروج عن القانون في الطرف المقابل لتكسر السقف ، و لتؤسس لمنظومة جديدة ، يتحول فيها (الخارج عن القانون) إلى (بطل) و (التمرد) إلى (بطولة) و (الإرهاب) إلى (مقاومة) .

لا يهم كيف ينظر الغرب اليوم إلى هذه الخروقات التي يعتبرها خروجاً عن القانون و تهديداً لأمن و سلامة العالم ، المهم هو كيف ينظر الشرق إلى هذه المنظومة الجديدة .

الشعوب العربية و الإسلامية أضفت قداسة على هذه المصطلحات الخارقة للسقف الغربي ، و صار الذي يقاتل الغرب مجاهداً ، فإن مات فهو شهيد ، ولم يعد الانصياع للغرب التزاماً بالقانون الدولي بقدر ما صار انهزامية وعمالة وانبطاحاً .

و على الأفراد و الهيئات و الجماعات و الأنظمة الموجودة في الشرق أن تختار بين أن تنظر إلى هذه المصطلحات كما ينظر إليها الغرب ، و بالتالي تصبح غير منسجمة مع محيطها الشرقي ، أو أن تتبنى رؤية الشرق لها و بالتالي عليها أن تفهم مقتضيات ذلك .

سنكتب بالبنط العريض أن الخارجين عن القانون هم الذين يصنعون العالم ، و يغيرون التاريخ ، و يؤثرون في اللعبة ، أما أولئك المنبطحون فهم ليسوا سوى جزء من واقع يصنعه الآخر ويسوقهم أمامه بالعصا لمباركته و تقديم القرابين له .

أعرف جيداً أن الذي يحتاجه الكثيرون في هذه المرحلة هو إزالة الضباب و التشوش عن المشهد ، ليتسنى لهم اتخاذ قرارات صحيحة ، لذلك كان هذا الكتاب فانوساً يكشف الزوايا المعتمة، و يسلط الضوء على لعبة التفكيك و التركيب الخطيرة التي خرجت من يد الغرب لتكون في أيدي الشرق ، فتحسس يدك جيداً فستجد فيها مكعبات للعبة ، و الكرة في ملعبك فابدأ .

محمد جربوعة

دمشق- صبيحة الجمعة : 1 - 10 - 2004م .

خرق السقف

استطاع الغرب ، و على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية طوال عقود أن يحافظ على السقف الذي وضعه للعالم ، و كانت أية محاولة لاختراقه تعني المساس بالطابوه الأكثر حرمة .

و السقف أشد وطأة من (الجدار العازل) ، بسبب أن الجدار يعزلك عن الآخر (الأرضي) بينما السقف يعزلك عن امتدادك السماوي ، الذي يعني الحرية و الشموخ .

إن هناك فرقا كبيراً بين نبتة يحاذيها جدار ، و بين نبتة تحت سقف واطئ .

(إنه السقف أيها الغبي) ، هكذا كان يقال لكل من يقترب مجرد اقتراب من تلك الدوائر الحمراء التي يرسمها الغرب للعالم

و كان ذلك امتداداً للاستعمار ، إذ صحيح أن الغرب انسحب من مستعمراته العربية و الإسلامية ، بل و العالم ثالثية ، لكنه كان يستعمرها (عن بعد) .

كان الضغط الممارس على هذه و الشعوب الضعيفة تحت (السقف) الذي لا يجوز تجاوزه مهما كان ظالماً وخانقاً ومتعباً ، نوعاً من الاستعمار الذي يحتاج إلى حرب تحرير أخرى .

كان من الصعب اختراق السقف من طرف كيانات لها وجودها الثابت ، و أرى أن الشعوب الثائرة كانت طوال العقود الماضية تقوم بتجارب ثورية و تحاول اجتراح أساليب فعالة للمواجهة والتحرر من نظام السقف الجائر .

غير أن (حماة السقف) كانوا قادرين على التنكيل بكل جهة تحاول اختراق السقف أو تقوم بالتشوير ضده ، لسبب بسيط و هو أن هذه الجهات الثائرة كانت كيانات ثابتة ، و المفترض لكي ينجح الاختراق أن يثور على السقف كيان (شبحي) غير ثابت ، و لا مكان له .

و لكي نبسط هذه الفكرة لا بد من القول أن للدول كياناتها الثابتة و تمظهراتها المادية المتمثلة في المؤسسات و العمران والمصانع و غير ذلك .

الدول كيان ثابت معروف ، لذلك كان يسهل على الولايات المتحدة أن توجه ضربة لأية دولة تعتبرها مزعجة و تحاول اختراق السقف المضروب .

و طوال العقود الماضية كانت هذه هي المشكلة في كل محاولات الاختراق ، لذلك تميّز حدث 11أيلول / سبتمبر 2001م بأن الذي قام به هو (كيان) هلامي غير ثابت و لا ينتمي إلى ثابت .

لذلك عجزت أمريكا عن رد الضربة لهذا الكيان الشبحي الموجود في كل مكان و غير الموجود في أي مكان .

لقد ارتبكت واشنطن ، فكيف ستقضي على تمرد مجموعة غير مرئية ؟

و أمام هذا الارتباك عمدت أمريكا لتغطية عجزها إلى الربط بين تنظيم القاعدة غير الثابت ، و بين كيانات أخرى ثابتة هي (دولة أفغانستان) و (العراق) .

كان سهلاً على أمريكا أن تضرب العراق و أفغانستان لأنها دول ، و كيانات ثابتة ، لكنها كانت تخدع نفسها بذلك ، إذ لم تكن تقوم بالمفترض أن تقوم به ، بل بالممكن و المتيسر .

كان المفترض أن ترد أمريكا الضربة للقاعدة ، لكنها عجزت فعوضت عن ذلك بضرباتها لكيانات ثابتة ، و كان ذلك بداية إعلان الفشل الأمريكي .

لنفترض أن القاعدة كانت فعلاً تنتمي إلى كيان ثابت ما ، كأن يقوم زعيم ما بتكوين مجموعة مقاتلين و إرسالها إلى واشنطن و نيويورك للقيام بعملية تفجير .

فحين تكتشف واشنطن الدولة التي تقف وراء هذه المجموعة ستوجه لها ضربات قاسية ، تجعلها تقلع عن التفكير في المساس بقدسية السقف مستقبلاً .

لكن لما لم يكن لتنظيم القاعدة كيان ثابت و لا ارتباط بكيان ثابت ، حدث الاختراق .

إن بعض التنظيمات الفلسطينية اليوم لا تستطيع أن تتجاوز اللعبة ، و هي لذلك قد تقوم بعمليات كبيرة ، لكن مفاتيح اللعبة ليست في يدها ، بل في أيدي الكبار ، لذلك فتوقيت إيقاف العمليات و إنهاء المقاومة موجودة (تحت السيطرة) .

صحيح أن هذه الجماعات الفلسطينية لا تمتلك كياناً ثابتاً يمكن ضربه ، لكنها مرتبطة بكيانات ثابتة ، و هي الدول التي ترتبط بها هذه الجماعات ، لذلك متى قرر الأعداء تصفية هذه

الحركات ، ضغطوا على الدول التي ترتبط بها هذه الحركات أو يقيم فيها قادتها ، و بذلك يتم الضبط .

لكن لنتخيل لو أن إحدى هذه الحركات خرقت السقف و تمردت، و أنهت مظهرها الثابت ، و دخلت في السرية في أماكن لا يعرفها أحد ، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى تنظيم القاعدة ، فهل ستستطيع أمريكا أو إسرائيل آنذاك التحكم في المقاومة الفلسطينية أو ضبطها عن طريق هذه الدولة أو تلك ؟

هذه الحركات لم تخترق السقف ، لذلك فهي ليست خطيرة بالنسبة للعدو .

و لننظر إلى العراق ، لندرك أن كياناً ثابتاً مثل جيش المهدي لم يستطع الصمود ، و تمت تصفيته في أيام ، بسبب أنه كيان ثابت ، بينما لم تستطع أمريكا و لا حلفاؤها القضاء على المقاومين الشبحيين في المثلث السني ، لأنهم ليسوا (جيشاً) بل (عصابات) سريعة الحركة ، و غير مرئية ، و لا معلومة المكان .

حاولت أمريكا بعد أحداث 11أيلول/ سبتمبر أن تعوض عدم قدرتها على ضرب اللاثابت بضرب ثابت ، و كان أن قضت على إمارة طالبان ، لكن مسؤولي طالبان و على رأسهم الملا عمر ، تنازلوا عن كيانهم الثابت ، و عادوا إلى (الشبحية) بالتحاقهم بالجبال ، و إلى اليوم لم تستطع أمريكا الوصول إليهم في الوقت الذي يرى المراقبون أن أمريكا هزمتهم حينما كانوا (كياناً ثابتاً) بينما هم يهزمونها اليوم و هم (أشباح) و عصابات خارجة عن القانون .

و الذي يزعج أمريكا اليوم أكثر ، هو أن (القاعدة) لم تعد جماعة ، بل نموذجاً ، و قانوناً .

و أي جماعة تريد اليوم إيذاء أمريكا تعرف أن الواجب ليس هو المواجهة من خلال كيان ثابت ، بل من خلال كيان خارج عن القانون لا يعرف له مكان تواجد .

و هنا لا بد من التنبيه إلى نقطة هامة ، و ملاحظة استراتيجية خطيرة ، و هي أن بعض القوى و الكيانات العربية و الإسلامية تنظر إلى تنظيمات الخارجين عن القانون و الخارقين للسقف على أنها جماعات منافسة لها ، و يذهب البعض إلى اعتبارها تشكل خطراً عليه مستقبلاً .

و هذا الاعتقاد ناتج عن سوء فهم و قصور تقدير ، لأن المهم اليوم ليس هو (من ضرب أمريكا) ، بل المهم هو (من المستفيد من ضرب أمريكا) .

إن المهزوم هو أمريكا ، لكن المنتصر ليس هو تنظيم القاعدة، تنظيم القاعدة هو (الضارب) ، بينما المستفيد هو كل الذين قمعتهم أمريكا حتى من غير المسلمين و العرب ، و فيدال كاسترو و هوغو شافيز و ...و... كلهم يعتبرون ضربات القاعدة لأمريكا نصراً لهم .

إن الذي يهمنا بعد هذا كله ، هو أن نسجل بالبنط العريض أنه و لأول مرة منذ عقود يضع الثائرون على أمريكا أصابعهم على المسمار السر ، و هو أنه لا يمكن الدخول في لعبة الكبار ، ولا التحرر و لا مقاومة الطغيان و الظلم و لا إرساء قواعد الحق

و ركائز الحرية إلا باختراق السقف ، و هذا الاختراق لكي يكون ناجحاً لا بد أن تقوم به مجموعة لا ترتكز إلى كيان ثابت يمكن ضربه .

لذلك فبقدر الخروق للسقف اليوم ، بقدر ما يحدث الإرباك والإضعاف لأمريكا و للعدو عموماً .

صلح الحديبية و خرق السقف

الذي حدث اليوم حدث بالأمس مراراً و تكراراً ، و التاريخ يعيد نفسه ، لكن المشكلة في كون الذين يدعون قراءة التاريخ كثيراً ما يبعدون النجعة ، لأنهم لا يقرؤون التاريخ فعلا ، بل يعيدون إنتاج أفكارهم الذاتية .

و الذي يتأمل صلح الحديبية و ما انجر عنه و ما نتج ، يزداد يقيناً بنظرية السقف هذه .

إن هناك دولاً تحمل أفكاراً ثورية ، لكنها لم تستطع أن تخرق السقف ، بل إن الخوف اليوم من أن تعود إلى ظل السقف المضروب .

و الذي يجب أن ندركه بوضوح هو أن أية دولة ضعيفة لا يمكن أن تواجه دولة قوية إلا إذا أخرجتها من دائرة مفهوم القوة عندها ، لذلك لم يكن من الممكن للدول الثورية طوال عقود ماضية أن تهزم الولايات المتحدة و الغرب عموماً .

و هذا ليس عيباً ، لأن التاريخ حدثنا عن مثل هذا حتى في دول أقامها الأنبياء .

سنرجع إلى السيرة لننقل ما يلي :

كان مما اتفق عليه المسلمون مع قريش في الحديبية أنه لا يجوز أن يدخل في سيادة دولة المدينة بعد الاتفاق رجل من أهل مكة إلا بإذن قريش .

لذلك قضت الإتفاقية بأن يرد النبي صلى الله عليه و سلم إلى قريش كل من التحق به مسلماً فاراً بدينه من مكة. ولما رجع

النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا : العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة فدخل المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه " لقد رأى هذا ذعراً " فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد " فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأنزل الله عز وجل (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم حتى بلغ حمية الجاهلية) (الفتح 24)وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت .

سنلاحظ هنا بناء على ما أسلفنا بسطه أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يكن له أن يغامر بكيان ثابت و هو (دولة المدينة) لخرق سقف قريش الذي اقتضى أن يتنازل المسلمون في معاهدة الحديبية على كثير مما كانوا يرونه من حقوقهم .

لكن أبا بصير كان قادراً على أن يخرق السقف لأنه كيان غير ثابت ، و لا يمكن هنا بأي حال أن نقيس واقع دولة لها كيانها ومواطنوها و ظرفها و التزاماتها و علاقاتها ، بجماعة خارجة عن القانون متخففة من كل الجواذب و المتجردة عن كل الالتزامات .

غير أننا سنلاحظ أن دولة المدينة التزمت فعلاً بالاتفاق مع قريش رغم الغبن الذي فيه و الذي اعتبره بعض الصحابة (رضى بالدنية) ، و الذي يقرأ بنود الاتفاقية يدرك ذلك .

لكن هذا الالتزام من دولة المدينة لم يعن أبداً أن تتكفل المدينة بالقضاء على الحركة المتمردة لأبي بصير لصالح قريش (دولة مكة) .

كما أن المدينة لم تدخل في علاقة عدائية مع أبي بصير مثلما يفعل اليوم الذين جندتهم الولايات المتحدة ليحاربوا المقاومة والخارجين عن القانون معها أو نيابة عنها .

لا جديد تحت السقف

هناك مثل قديم يقول : (يا داخل مصر منك آلاف) .

أي إذا كنت مهندساً أو طبيباً أو شاعراً أو صانعاً أو غير ذلك"، و دخلت مصر فلن تكون مميزاً ، بل مثلك آلاف .

و تحت السقف ملايين من البشر ، لذلك فأرقى ما يمكن أن يصل إليه التواق هو أن يلامس رأسه السقف ، و ثمة النهاية .

لذلك لا امتياز إلا باختراق السقف ، و هناك يرتقي المرء على قدر توقه و همته .

سنلاحظ هنا عملية الخرق هي وحدها التي تعد خروجاً عن المألوف : (خرق جدار الصوت) (الخرق الأمني) (خرق القانون) ، و ما عدا هذا من الانسجام مع العرف القانوني و لو كان جائراً ، فهو ليس سوى الموت .

و مثلما أن الطائرة التي تخرق جدار الصمت هي وحدها التي تثير الانتباه و الذعر و الارتباك ، فإن خرق القانون هو وحده الذي يربك العدو و يثير انتباه الإعلام و العالم .

و المدن و الشعوب و الأشخاص في هذا سواء .

إن مدينة مغمورة مطمورة مثل الفلوجة ، لم يكن ليعرفها أحد لو أنها التزمت بما التزمت به غيرها من المدن في العالم .

لقد صارت الفلوجة جزءاً من صناعة الأحداث في العالم كله،لأنها خرقت السقف و تجاوزت خوفها و خنوعها و تهديدات حراسه .

الفلوجة خرجت من حجمها الجغرافي المادي إلى حجم معنوي

آخر ، فأصبحت مثالاً و نموذجاً ، و تترست خلفها الكثير من مدن الشرق التي لا شك أن يصلها الغزاة لو أن الفلوجة سقطت .

فهل كان لقرية صغيرة مثل الفلوجة أو قرية مثل الرمادي أن تفعل كل هذا و تحقق كل هذا دون أن تخرق السقف؟

إن الخطاب ذاته يفقد حقيقته و حقه و جوهره و صدقه إذا كان مسايراً للسقف ملتزماً به .

بل إن الإسلام ذاته يفقد قوته و سمته و صبغته حين يتم إدخاله تحت سقف التحكم المقيت .

و هنا يجب أن نلاحظ كيف تقوم بعض الدول تحت الضغط الأمريكي بتغيير منظوماتها التعليمية التربوية ، بل و الدينية ، و هو أمر سيكون وبالاً عليها أمام الحق الذي لا يقبل التزييف ولا المصادرة و لا النقصان .

و إلا فما معنى أن يتم التأسيس في بلاد المسلمين للدين (الإنساني) الجديد الذي لا فرق فيه بين المسلم و الكافر ؟

و ما معنى أن يتم التحوير في تفسير الآيات و الأحاديث الآمرة بمحاربة الظالمين و دحر المعتدين و إخراج المشركين من جزيرة العرب ؟

النبي صلى الله عليه و سلم يقول : (والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصرانيٌ ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به ، إلا كان من أصحاب النار) .[1]

---

1 - موسوعة السنة ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب :(وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته) ، المجلد الرابع :1/134

لكن هذا الكلام غير مقبول اليوم و لا مسموح به لأنه في نظر أعداء الإسلام يفرق البشر و يثير الحزازات .

لهذا هناك اليوم كيانات متورطة ليس فقط في الانبطاح للعدو، بل ببطح كل ما تحت يديها له ، من أتباع و مقدرات وثروات و أرض و قيم و دين ، و هو ما يعني أن هذه الكيانات قد ارتبطت بالعدو مشروعاً و مصيراً ، الأمر الذي يجعلها عرضة معه لضربات الخارجين عن القانون ، لذلك نلاحظ اليوم أن هناك رفضاً للعدو و للمرتبطين به أيضاً، و هو ما يجعل رئيس الحكومة العراقية لا يختلف أبداً عن الحاكم المدني بريمر لأن الاثنين حاكمان مدنيان بأمر أمريكا .

التخبط

الذين يلومون أمريكا على ما تقترفه في العراق اليوم بجنون، أناس لا يفقهون حقائق الأشياء ، لأنهم يدرسون السلوك الأمريكي بناء على وضع قديم في رؤوسهم .

إن الصورة القديمة لأمريكا ، و هي صورة الكيان الآمن المسترخي ، المتأله، المتربب ، المشرّع ، الذي يرى نفسه الأفضل ، و الأولى بأن يسن للبشر جميعاً سننهم و مواضع خطوهم ، وطريقة مشيهم و لباسهم و أكلهم و شربهم ، الكيان الذي يضع رجلاً على رجل و هو يتصنع الديمقراطية و الحضارة و الفهم و النظافة والعدل و حقوق الإنسان ، هذه الصورة صورة قديمة تتناسب طبعاً مع الوضع الذي كان يحيط بأمريكا طوال قرون مضت .

و كان ممكناً لأمريكا و هي في حال انتصار و نشوة غلبة واطمئنان إلى أن لا أحد يقفز على جدارها و لا يتسور سورها أن تحافظ على تلك الصورة المبهرة و لو تصنعاً .

لكن الديناصور جرح فجأة ، و فقد توازنه ، و اضطرب وملكت قلبه الدهشة و أذاب الرعب فؤاده ، و كان من الواجب قياس ما سيقوم به من تجاوز للمعاني الخلبية التي كان يتصنعها ليصدرها إلى العالم ، بواقعه الجديد و هو جريح فاقد للتوازن ، لا بواقعه القديم و هو آمن واضع رجلاً على رجل يراقب العالم ومن عليه ممن يعتبرهم فئران تجارب .

لذلك فطبيعي أن تفعل أمريكا اليوم ما تفعل ، من انتهاك لمبادئها التي كانت تسوقها ، طبيعي أن تخرق أمريكا معاني

الحرية و أن تدوس على الإنسان و حقوق الإنسان ، و أن تتجاوز كل المعايير و القوانين و الأعراف و القيم و الشرائع .

كل ذلك طبيعي إذا عرفنا أن الحرية و حقوق الإنسان لم تكن يوماً عقيدة راسخة عند الأمريكان ، بقدر ما كانت تجارة ، وتصنعاً ، و مصلحة ، و لو كانت إيماناً و عقيدة لما ذابت من أول شواظ يلهب الوجه الأمريكي ... سقط قناع الزبدة عن ذلك الوجه القبيح ، لأنه و ببساطة كان قناعاً و من زبدة .

ثم أن الذين يفهمون حجم الضربات التي مست أمريكا ، ومقدار الذعر الذي دب في أوصالها ، يفهمون جيداً ردة الفعل الهمجية التي تضرب يميناً و شمالاً ، مثل جندي داهمه الخطر فصار يطلق النار في كل اتجاه .

إن هذا الذي يحدث هو الدليل على أن الخارجين عن القانون قد استطاعوا فعلاً إصابة طريدتهم في المفصل، و لا شك أن الطريدة تدرك اليوم أنها حتى إذا لعقت جرحها الغائر ، و لملمت أوجاعها و انسحبت تخط على الأرض ، فإن الخارجين عن القانون لن يتركوها و شأنها .

لكن واشنطن تدرك أن أهم ما خسرته في هذه الحرب ، و أهم ما ربحه أعداؤها ، و لا أقول الخارجين عن القانون فقط ، هو (سقوط الشعارات البراقة) .

لم يعد باستطاعة أحد أن يخدع أحداً بكون أمريكا هي ممثلة الحرية و حقوق الإنسان .

سقط المنتوج الأمريكي و لم يعد قابلاً للتسويق بالإقناع ، تماماً كما لم يعد ممكنَ التسويقِ بالقوة و القسر و الإكراه .

الذين لا يفهمون هذا ، لا بد أن يفهموا أولاً ، لكي يفهموا هذا ،أن الذين حكموا على أمريكا بأنها راقية و ديمقراطية وتحترم الإنسان و النبات و الحيوان ، إنما حكموا عليها بذلك من خلال (أمريكا في الداخل) ، و هذه هي الخدعة ، فأمريكا مثل إسرائيل و مثل الدول الاستعمارية جميعاً ، تطبق شعاراتها على مواطنيها في الداخل ، أما الآخر ، الأجنبي ، المواطن في دولة أخرى فإن أمريكا لا تحترمه و لا تراعي حياته و إنسانيته .

إسرائيل يمكن أن تقلب الدنيا و تحرق العالم من أجل مواطنين اثنين من مواطنيها ، لكنها بعد ذلك تقتل ألف طفل فلسطيني بقلب جامد و باسم السلام و الحرية .

كذلك أمريكا ، الذين سافروا إليها رأوا أن شوارعها نظيفة ، لكنهم لم يكونوا يعرفون ما الذي يمكن أن تفعله أمريكا بشوارع الآخرين ، الذين سافروا إلى أمريكا رأوها من الداخل ، و رأوا ديمقراطية و حرية محلية التطبيق ، لكنهم لم يروا اليوم الذي تخرج فيه أمريكا عن مجالها الجغرافي ، لذلك فوجئ هؤلاء بصور مجندة أمريكية تجر عربياً مسلماً عراقياً من رقبته .

و فرك هؤلاء عيونهم أمام مفاجأة الجندي الأمريكي الذي يتبول على بشري من لحم و دم .

لذلك هرع قاصرو النظر هؤلاء إلى تكذيب ما حدث ، و بعد أن تأكد حدوثه و لم يعد التشكيك يجدي ، لجأ هؤلاء إلى القول

أن الذين فعلوا هذا لا يمثلون أمريكا ، و أنهم قلة شواذ ، لا يقاس عليهم ، و لا يجوز أن تؤخذ أمريكا عن بكرة أمها بجريرتهم .

و الذي يقرأ لكتّاب جريدة منبطحة مثل الشرق الأوسط أو يستمع إلى قناة مثل العربية يجد هذا واضحاً .

و لم تكن أمريكا وحدها التي نكبت بسقوط شعاراتها ورسالتها الأخلاقية العالمية ، بل نكب حتى ذلك الطابور الخامس من مواليها في البلاد العربية و الإسلامية ، ممن هزوا ذيولهم هاشين باشين لدبابة البنتاغون و هي تخترق بوابة المنطقة غازية .

ضعف المشروع الليبرالي في المنطقة لأنه هو ذاته المشروع الأمريكي ، و استبشر أعداء أمريكا ، لأنهم كانوا قبل هذا يرون أنه من الصعب إقناع الآخرين المشدوهين أمام النموذج الأمريكي القديم ، و الفاغرين أفواههم أمامه ، بأن كل ذلك طلاء و تصنع، فلقد سقط القناع و سقط معه أهم شيء و هو (الافتتان بأمريكا النموذج) .

اليوم لم يعد بإمكان أمريكا أن تخدع الناس بديمقراطيتها واحترامها للقانون و حقوق الإنسان ، هناك مقت واسع و كبير ضد أمريكا ، و اشمئزاز من أخلاقها و سخرية من شعاراتها ، لكن أمريكا ذات العيون الزرقاء و البشرة القرمزية المجعدة ستحاول خداع المنطقة بذيولها الذين هم من بني جلدتنا ، والذين يسميهم البعض (الليبراليين) .

و لمواجهة الخدعة الجديدة التي تعتمدها أمريكا لتسريب

مشروعها ، عبر (الطبعة العربية) يكفي أن نربط في فهم الجماهير بين أمريكا و الليبراليين في الوطن العربي و البلاد الإسلامية .

لذلك لا يجب علينا أن نعتبر الليبراليين مجموعة ثقافية أو فكرية لها مشروع و اجتهاد ، بقدر ما يجب بيانهم للجماهير على أنهم مجرد عملاء ، و وكلاء محليين لإعادة إنتاج المشروع الأمريكي في المنطقة ، رغم أن الكفر الإنجليزي لا يصير إيماناً بتعريبه .

إن البعض يرى أن عند الشارع العربي اليوم توق أو على الأقل استعداد لقبول الليبرالية التي تعني الحرية التي لا حدود لها ، والعودة بالإنسان إلى الوضع الطبيعي السابق لظهور القوانين والشرائع و الرسالات ، و هو الوضع الذي ينطلق فيه الإنسان مما يمليه عليه مراده لا غير .

هناك خدعة لا بد من الانتباه إليها ، و هي أن الشباب العربي بحكم الأوضاع التي عاشها ، و بحكم الكبت العرفي و الديني ، له قابلية كبيرة لليبرالية التي سيحقق من خلالها غرائزه وإشباعاته .

و لنفترض أن ذلك صحيح ، لكنه لا يعني أن هذا التفكير عند الشباب هو الليبرالية ، لأن الليبرالية تعني أن يتحرر الجميع، ويكونوا سواسية ، فالأب لا يستطيع وفق المبدإ الليبرالي أن يقف في وجه إرادة ابنته إن هي اختارت أن تعاشر عشيقها و أن تمر

معه ذراعاً بذراع أمام المقهى الذي يجلس فيه أبوها مع أصدقائه.

و الأب نفسه وفق المبدإ الليبرالي عليه أن يخرج من زنزانة تقاليده و يقبل بالوضع الليبرالي الجديد الذي يجعل من حق ابنته أن تفعل ما تشاء .

و لا يجوز للأخ الغيور أن ينهر شاباً واقفاً في الطريق يغازل أخته المطلة من النافذة إن كانت هي راضية بذلك ، لأنها حرة ، و الشاب حر كذلك .

و يرى (ستيوارت ملْ) و هو والد الليبرالية أن المجتمع الديني غير ليبرالي لأنه مجتمع في نظامه للحكم فردي استبدادي ,ونظامه الاجتماعي العام مؤسس على الإجماع في الرأي وعلى تحريم النقد والنقاش المفتوح.

و يرى (مل) مثلا أن تحريم الخمر شرباً و اتجاراً يعد تقييداً لحرية الأفراد ، فيقول :"إن التحريم يمس حرية الفرد لأنه يعتبر الفرد غير مدرك لمصلحته"

و يقول (مل) عن لحم الخنزير : :"إن للمسلمين الحق في تجنبهم لحم الخنزير لأنهم يعافونه ,لكنهم عندما يحتقرون غيرهم ممن لا يعافه ويأكله ,فإنهم يمسون بحرية ذلك الغير".

لذلك فإن أخطر ما يريد فعله الليبراليون اليوم هو إسقاط الحواجز الشعورية النفسية الدينية عند المسلمين ، فيصبح الواحد منهم لا يحس بتميزه و لا بتميز الآخر عنه .

يقول (ستيوارت مل) في الحسبة و النهي عن المنكر :"إن الناس عندما ينهون غيرهم عن المنكر يعتقدون أن الله لا يكره

فقط من يعصي أوامره ,بل سيعاقب أيضاً من لم ينتقم في الحال من ذلك العاصي".

و جون ستيوارت مل نفسه لا يستطيع الثبات على هذه المبادئ اللامنطقية التي يريد إرساءها ، لذلك يعود ليناقض نفسه ، حين يكتشف أنه من المستحيل أن تكون هناك حرية مطلقة لا حدود لها دون أن يحدث اصطدام بين مصالح الناس وحرياتهم .

و هو يصل بعد أن قرر أن إنكار شرب الخمر و بيع لحم الخنزير يعد مساساً بالحرية ، يرجع لينقض كل الذي بناه ، حين يسأله بعضهم : (هل يجوز السماح ببيع السم أو التبغ أو الخمر ؟ هل يسمح للمرء أن يبيع نفسه لغيره ؟ هل يجب إجبار المرء على التعلم ؟ هل يجب تحديد النسل ؟).

و أمام هذا يشطب مل كل الذي قاله من قبل ليقول : (:"في كل قضية من القضايا السابقة إن عدم تدخل الدولة قد يؤدي إلى أن يضر المرء نفسه بنفسه : أن يبقى جاهلاً أو أن يبذر ماله أو أن يسمم أقرباءه أو أن يبيع نفسه ,ولكن إذا تدخلت الدولة ومنعت بعض الأنشطة ,فسيكون المنع بالنسبة للرجل العاقل تجنياً على حقه في التصرف الحر".

إن الادعاء بأن عند الشباب التواق إلى التحرر قابلية لليبرالية ادعاء باطل ، و هو فرية ما فيها مرية ، لأن الشاب قد يكون فعلاً راغباً في تجاوز كل الحدود لتحقيق رغباته ، لكنه لا

يمكن أن يسلّم لك أو يقتنع بأن لأخته الحق مثله في أن تنطلق لتحقق نزواتها .

لهذا يجب التفريق بين الفكرة و الشهوة .

الليبرالية فكرة تدعو إلى الحرية المطلقة ، التي يتساوى فيها الجميع ، و المرء فيها المؤمن بها يقبل على نفسه ما يقبله لنفسه، غير أن الشاب العربي و المسلم قد يكون في سن معينة تواقاً إلى الانفلات ، شهوة لا فكرة ، لهذا فهو ليس مؤمناً بالليبرالية، بقدر ما هو يتقاطع معها في كونها تحقق له نزوته .

فهل يمكن للمنطقة أن تتخلى عن كل شرفها و أعرافها ودينها لتكون قطيعاً من الحمر الأهلية الراتعة في الكلإ و العرض دون حدود ؟!

لا بد للذي يريد أن يجيب عن هذا السؤال أن يعرف أن الآباء في صعيد مصر مثلاً تساورهم أفكار بقتل أزواج بناتهم ليلة العرس ، لعدم قدرتهم حتى على تحمل فكرة أن الزواج لا يمس الشرف .

إن واقع الشباب اليوم هو واقع الشباب دائماً ، و الذين يتوقون إلى إشباع نزواتهم لا يفعلون ذلك لأنهم مؤمنون بالليبرالية ، لكنهم يفعلون ذلك شهوة ، و هذا قديم ، و كلنا نذكر ما رواه الإمام أحمد، عن أبي أمامة، أن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا ، فأقبل عليه القوم فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: "ادنه"، فدنا منه قريباً، فقال: "اجلس" فجلس، فقال: اتحبه لأمك؟" قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم"، قال:

"أفتحبه لابنتك؟" قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم"، قال: "أفتحبه لأختك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم"، قال: "أفتحبه لعمتك؟" قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال: "أفتحبه خالتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم"، قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه"، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (أخرجه الإمام أحمد في المسند). وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له" (أخرجه ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً) .

إن هذا الشاب ليس ليبرالياً ، و رغم ذلك فهو يريد إشباع نزوته ، لكنه لا ككل شبابنا اليوم لا يرضى ذلك لأمه و لأخته ولعمته و لخالته .

لهذا كله لا بد من الإجهاز على الطبعة العربية للمشروع الأمريكي ، عبر فهم معطيات عدة تعين على ذلك و تيسره .

تدمير في تدبير

الآن ، و بعد سنوات من أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001م ، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تدرك أن القضاء على الخارجين عن القانون ليس في سهولة شرب (الكوكاكولا) ، بل إن أمريكا نفسها متأكدة اليوم أن أمر القضاء على هؤلاء الذين يستهدفونها متراوح بين اللاممكن والمستحيل ، لذلك ، وتبعاً لذلك أدركت (محميات الولايات المتحدة) من بعض الدول العربية أن واشنطن غير قادرة على حمايتها مستقبلاً إن هي وقعت بين أيدي الخارجين عن القانون ، لسبب واحد و هو أن أمريكا لم تحم حتى نفسها منهم .

حقيقة العجز هذه أربكت صانعي اللعبة العالمية ،كما أربكت أطرافهم و المتعلقين بأذيالهم ، و بدأ أن كرة الثلج تسير عكس الإتجاه الذي يحقق الرغبة الأمريكية .

إن المؤمّل من كل هذه العملية الكبيرة في ملاحقة فلول (العدو الشبحي) لأمريكا و المسماة (حرب الإرهاب) ، هو القضاء على هذا الخطر و التهديد ، لكن الحقيقة أن النتائج جاءت عكسية ، و الرياح جرت على غير ما تشتهيه سفن دهاقنة السياسة من المحافظين الجدد و آلهة الحرب في واشنطن .

و بدل القضاء على الإرهاب ساهمت عمليات المطاردة و الحرب الإستباقية في توسيع دائرة الخارجين عن القانون .

الأمر شبيه بعملية فاشلة لمحاصرة سرطان ، فما إن مس

المشرط ورماً في عضو ما ، حتى انتشر المرض في كل الإتجاهات في الجسم .

و أمام حالة كهذه ما الذي يمكن أن يفعله الطبيب ، مهما كان ماهراً ، ما دام هو غير الله سبحانه ؟

لقد داهمت القوات الأمريكية أرض أفغانستان لقطع دابر الخارجين عن القانون ، و بدل القضاء عليهم ، تحولت حركة كاملة و هي حركة طالبان، من حركة رسمية حاكمة إلى جماعة (خارجة عن القانون) .

و في العراق حدث مثل ذلك ، و تحولت الساحة العراقية إلى ساحة للمقاومين الخارجين عن القانون الأمريكي ، بل إن بذرة الخروج عن القانون قد نمت بصفة واسعة و قوية عند الملايين ممن هم خارجون عن القانون فكرياً و شعورياً في كل مناطق العالم ، و الذين لديهم استعداد ليدخلوا دهاليز المقاومة السرية متى وجدوا نقطة تماس واقعية مع الولايات المتحدة الأمريكية.

و هكذا، فكلما حاولت اليد الأمريكية رتق فتق ازداد انفتاقاً و وقف الراتق عاجزاً .

و أمام أمريكا و حلفاؤها الآن خياران :

الأول هو الاستمرار في محاولة القضاء على العدو الشبحي ، و بالتالي توسيع دائرة الإضرار بالناس و تحويلهم إلى متمردين في صف الخارجين عن القانون .

أما الثاني فهو أن تتوقف الولايات المتحدة عن مطاردة هؤلاء خوفاً من زيادة انتشارهم ، و ذلك لا يعني أن هؤلاء سيتوقفون

ويوقفون استهدافهم لأمريكا إن هي رفعت يديها عالياً بالراية البيضاء .

هذا الذي يسمى بالوقوع في الوحل ، و الذي لا يستطيع معه المرء التقدم إلى الأمام ، تماماً كما لا يستطيع التراجع إلى الخلف، و في تلك النقطة التي لا أمام لها و لا وراء تبتلع الأرض الظالمين ليكونوا عبرة .

هنا لا بد من إبراز قضية هامة ، و هي أن تغير المعطيات والمصطلحات في القاموس الإستراتيجي يعد السمة الأولى لهذا المعجم ، لذلك لا بد لكي نستوعب التحولات و التغيرات السريعة و البطيئة الطارئة على الخريطة أن تكون عندنا القدرة الكافية لهذا الاستيعاب .

إنني لا أتحدث هنا على القدرة على استيعاب التغيرات، والتي قد يمتلكها الكثيرون ، لكنني أتحدث عن القدرة الكافية التي تتناسب مع حجم ما يحدث من تلونات و تفككات وتركيبات جديدة على أنقاض الهياكل القديمة المتفككة .

إن من الخطإ الفادح هنا و نحن نتحدث أن نضع على الطاولة أمامنا خريطة جغرافية للعالم ، الخريطة الجغرافية لم تعد صالحة ، و هذا هو الخطأ الذي ارتكبه صدام حسين حين فتح الخريطة ذات يوم و رأى فيها هذا الكيان الذي يتاخمه و هو الكويت .

هناك خريطة جديدة تفرض نفسها اليوم و هي خريطة النفوذ ، و التي لو فتحها صدام حسين لرأى فيها أن الذي على حدوده ليس هو الكويت بل الولايات المتحدة الأمريكية .

إنها خريطة النفوذ ، و حسب هذه الخريطة التي يجب التحاكم إليها اليوم بدل الخريطة الجغرافية التقليدية ، فإننا يمكن أن نقرأ بوضوح تحول معنى (الوحل) من المنطق الجغرافي المكاني المحدود إلى المعنى الإستراتيجي ، و اليوم يمكن أن نتحدث عن فييتنام جديدة في العراق مثلاً ، رغم أن فييتنام جغرافياً ليست في العراق ، لكنها نموذجياً يمكن أن تكون في أي مجال جغرافي تغوص فيها عجلات دبابة البنتاغون في الوحل .

و هذا الذي يزعج الولايات المتحدة أكثر ، فالخارجون عن القانون ليسوا شعباً في دولة ، و بالتالي فإن أمريكا ستتفادى مقاومتهم إذا قررت الانسحاب من هذه الدولة كما فعلت بانسحابها من فييتنام .

فييتنام القديمة ، معركة محدودة بحدود جغرافية ، متى خرج منها الأمريكان انتهت المقاومة ، بينما فييتنام الخارجين عن القانون هي وحل غير محدود جغرافياً ، و هو معركة متنقلة مفتوحة على الزمان و المكان كله ، و الحرب ستلاحق أمريكا حتى إن هي خرجت من العراق ، كما أن النار ستلاحق أذيالها في كل مكان من العالم .

هنا سنجد من الواجب تسجيل معنى جديد لمفهوم الحرب بمعايير الخارجين عن القانون ، و هي أنها ليست حرب مقاومة بالمعنى المعروف ، لأن الخارجين عن القانون لا يستهدفون أمريكا في حالة دفاع فقط ، بل في حالة هجوم أيضاً .

إنهم يستهدفونها في العراق و أفغانستان في حالة دفاع ،

صحيح ، لكنهم يستهدفونها أيضاً في عقر دارها ، و في كل زوايا الكوكب الأرضي .

هذا طبعاً يزعج أمريكا ، فهؤلاء ليسوا مجرد مقاومين سينهون مقاومتهم متى انسحبت أمريكا من الأراضي التي تحتلها و يدافعون هم عنها .

هذا الكلام يصل بنا إلى حقيقة كبرى لا يجب إغفالها ، و هي أن هؤلاء لا يدافعون عن أرض إلا من خلال رؤية أيديولوجية عقدية ، لهذا فالأرض المحدودة لا تعنيهم ، بقدر ما تعنيهم الأيديولوجيا ، و معنى هذا أن انسحاب أمريكا من العراق وأفغانستان لن يوقف استهدافها ، لأن هؤلاء لا يستهدفونها فقط في العراق و أفغانستان ، بل يستهدفونها في ذاتها ، لأنها ظالمة ، و صليبية ، و حاقدة ، لذلك فالمعركة متعلقة ببقاء أمريكا لا ببقائها في العراق ، المعركة تستهدف إنهاء أمريكا كليا ، لا مجرد إنهائها في العراق و أفغانستان ، و طبعا فكل هذه المعطيات تجعل المعركة مفتوحة على أماكن و آجال غير محدودة ، و هو ما يزعج الولايات المتحدة أكثر ، لأنه يخرج اللعبة من دائرتها التقليدية التي تمتلك الولايات المتحدة الكثير من مفاتيحها ، و يضعها في إطار جديد لمعركة جديدة مفاتيحها و مواقيتها و آمادها في يد الخارجين عن القانون لا في يد غيرهم

كانت الولايات المتحدة هي التي تختار الكيان الذي تريد توجيه ضربة إليه ، و تختار مكان الضربة و توقيتها و زمنها ، أما اليوم فلا .

و حتى القضية الفلسطينية، فإن فيها اليوم في هذا الإطار بداية تحولات قد لا تبدو للذين لا يرون الصورة إلا بعد اكتمالها.

يجب أن نمتلك الجرأة لنقول أن المعركة في فلسطين كانت طوال خمسين سنة معركة مضبوطة ، مفاتيحها في يد العدو ، لا في يد المقاومة .

و بضغط بسيط تقوم به إسرائيل أو واشنطن على دول عربية معينة ، يمكن محاصرة المقاومة ، و جمعها على طاولة واحدة لتلقينها المباح و المحظور .

ثم أن المعركة لم تكن بحجمها الطبيعي الذي يجعل فلسطين قضية أمة لا قضية الفلسطينيين وحدهم .

حدث هذا لأن اللعبة كانت تدور وفق المعنى الجغرافي الذي يعني الأرض ، و الذي يعطي الفلسطينيين وحدهم الحق في المقاومة ، طبعاً كان هذا يعني قتل المعطى الديني الذي يعطي فلسطين مداها الديني و يجعل المعركة واجبة على كل مسلم أينما كان ، كما تجعل الإسرائيلي أو الصهيوني عدواً محارباً أينما وجد .

الآن بدأ الخارجون عن القانون يعطون المعركة هذا البعد القيمي البعيد عن منطق الجغرافيا ، فبدأ الحديث عن عمليات يقوم بها غير فلسطينيين ضد أهداف إسرائيلية أو صهيونية خارج فلسطين المحتلة .

و حين أقول فلسطين المحتلة فإني لا أعني أن هناك فلسطين محررة متواجدة في غزة و الضفة ، ذلك لأن الحرية لا تتجزأ ،

وإذا كانت عندك غرفة تسكنها و استولى عدوك عليها و ترك لك زاوية تمد فيها رجليك فهذا لا يعني أن الزاوية محررة ، بل يبقي الغرفة كلها في معنى الغصب و الإحتلال .

و هنا لا بد من القول أن المعركة الواسعة بالمعنى الجديد المتجاوز للمعنى الجغرافي لا تعترف بفكرة الرجوع إلى خطوط الرابع من حزيران/يونيو ، و لا غير ذلك ، لإيمانها أن فلسطين كلها محتلة ، و الإحتلال لا يصير حقاً بالتقادم ، و لئن كان استرداد الحق غير ممكن لضعف ، فإن الواجب أن لا يسقط الحق على المستوى النفسي .

إن القراءة الصحيحة للمشهد لا يجب أن توقفنا عند الظواهر فنكتفي بها عن ملاحظة و فهم الجوهر .

إن الناس يتحدثون عن (الجدران) ، فيقولون : (سقط جدار برلين) ، و يقولون : (إسرائيل تبني جداراً عازلاً) ، و في رأيي فإن الذي يحدث فعلاً في إطار انهيار و إقامة الجدران ليس هو هذا الذي يراه الناس بأعينهم و يلتقط له المصورون صوراً يبيعونها للوكالات و ينشرونها في الصحف ، بل شيء آخر تماماً.

الجدران التي يجب الحديث عنها هي جدران معنوية ، و ليست الجدران المرئية سوى تجسيداً مادياً لها .

هناك إسقاط اليوم من طرف الخارجين عن القانون لعدة جدران وتحييزات و حدود ، منها الجدار المضروب بين القضية الفلسطينية وبين الأمة الإسلامية ، و منها الجدار-الفكري الذي يفصل فلسطين ما بعد الرابع من حزيران /يونيو عن فلسطين ما قبله ، ومنها

الجدار الذي يفصل الإسرائيليين عن عمقهم و امتدادهم ورافدهم في العالم كله من الصهاينة غير الموجودين في فلسطين المحتلة .

و هناك كذلك جدار الفصل بين الجندي الأمريكي في العراق والذي تجب مقاومته أو تجوز ، و الجندي الأمريكي الذي يقيم قاعدة عسكرية أمريكية في بلد عربي أو إسلامي غير العراق ، و هناك جدار ميدان المعركة التي لا يجب أن تكون فقط في بلد الدفاع ، بل يمكن أن تخرج إلى ميادين للهجوم ، و هناك كذلك جدار المستهدفات ، إذ قد تسمح الولايات المتحدة أثناء المعركة بالمساس بأمن جندي لها ، لكنها ترى وجوب استثناء (النفط) في المعركة و هناك جدار اعتبار المستباح واحدا سواء كان أرضاً أو قيمة ، و هو ما ينطلق منه الخارجون عن القانون في اعتبار استهداف أمريكا التي احتلت العراق ، مثل استهداف أمريكا التي منعت الحجاب ، و هناك جدار الفصل بين سلاح و سلاح ، إذ تعرف أمريكا أن الخارجين عن القانون لن يتورعوا عن استخدام أي سلاح من أسلحة الدمار الشامل لو وقعت في أيديهم ، كونهم لا يعترفون أن إبادة أمريكا لمليون عربي أو مسلم بأسلحة خفيفة و في مدة شهر أرحم و أقرب للقانون الدولي من إبادة مليون أمريكي بسلاح دمار شامل في طرفة عين ... وهناك ..و هناك ...

إن سقوط كل هذه الجدران معناه انفتاح ميدان المعركة على كل الأبعاد ، و هو أمر يريك و لا شك الولايات المتحدة و الغرب وإسرائيل .

و أمام كل هذا تحاول الولايات المتحدة و إسرائيل إقامة جدران و حدود بين كل هذه القضايا ، لكن سبق السيف العذل ، و لات حين مناص .

اليوم، و بناء على كل هذا ، لم تعد أمريكا سوى مسعر الحرب الذي أطلق الرصاصة الأولى فيها ، لكنه لم يعد يتحكم في شيء ، و لا يعرف من سيكون له شرف إطلاق الرصاصة الأخيرة ، رصاصة الحسم ، ولا أين؟ ، ولا متى؟ ، ولا كيف؟ .

إنه القفز من نافذة مفتوحة ، في المجهول ، و قد تكون النافذة في الطابق الأول ، كما قد تكون في الطابق المائة ، لكن بعد أربع سنوات من مطاردة الخارجين عن القانون ، بدأت أمريكا تدرك أن قفزتها ليست من الطابق الأول بالتأكيد ، و لا هي من الطابق الخمسين ، و لا زال السقوط الحر صيحة طويلة ، أما اندلاق الأقتاب على الأرض فأكيد ، لكن متى سيكون ؟

ذلك لا يعرفه إلا الذي يعرف الطابق الذي قفزت منه الولايات المتحدة ، و الذي لا شك أنه طابق عال ، قضت قروناً في بنائه وتشييده ، ليكون الأعلى .

لكن التاريخ علّمنا أن لهامان رغم الصرح البالغ عنان السماء نهاية .

لماذا يحدث الخروج عن القانون ؟

أخيراً لا بد من التساؤل : لماذا يحدث الخروج عن القانون ؟

و للجواب نقول : يحدث الخروج عن القانون عندما يسقط الإيمان به ، و الخروج أنواع ، أدناه الخروج الفكري أو النفسي ، وأعلاه الخروج (عن القانون) و(على القانون) بالقوة .

إن سقوط الإيمان بصحة أو عدالة قانون ما هي التي تدعو إلى خرقه ، و الناس أصناف و معادن ، فهناك من لا يتجرأ على خرق القانون أمام الناس لكنه متى أمن الرقيب و خلا ، فعل ذلك، بينما منهم الذي يخاف من الرقيب حتى و هو مع نفسه ، لكنه داخل نفسه ساخط على هذا القانون متبرم منه كافر به .

إذن فإن الخروج نوعان ، خروج نفسي ، و خروج حقيقي .

و المنطقة العربية و الإسلامية بمجموعها خارجة عن القانون العالمي نفسياً ، لذلك فهي لا ترى فيما يفعله الخارجون الفعليون عن و على القانون ضيراً .

إن من صفة القانون لكي يحترم أن يكون عادلاً ، حقاً ، و أن يلتزم به الجميع ، لأن عدم التزام القائمين على تطبيق القانون بالقانون يجرئ الآخرين عليه ، لذلك جاء فيما روته عائشة رضي الله عنها

أنَّ قريشاً أهمتهُمْ شأنُ المرأةُ المخزوميَّة التي سرَقَتْ. فقالوا من يكلِّمُ فيها رسُولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم فقالوا من يجترئُ عليهِ إلاَّ أُسامةُ بنُ زَيدٍ حبُّ رسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم

فكلّمهُ أسامةُ. فقال رسُولُ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسَلّم: "أتشفّعُ في حدٍّ من حدود اللّه؟ ثُمَّ قامَ فاختطبَ فقال: إنَّما أهلكَ الّذينَ من قبلكُم أنَّهم كانوا إذا سرقَ فيهمُ الشَّريفُ تركوهُ. وإذا سرقَ فيهُم الضَّعيفُ أقاموا عليه الحدَّ. وأيمُ اللّه لو أنَّ فاطمةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سرقتْ لقطعتُ يَدَها".

و في الكون قوانين و نواميس لا بد من مراعاتها و احترامها و الإنضباط معها و عدم مصادمتها ، و حين يحدث أن يعطل من القوانين شيء فإن القانون يأخذ مساره بطريقة أو أخرى ، لأنه ماض لا يتوقف و لا يتعطل .

لهذا فإن القانون إنما وجد ليحفظ العدل مثلاً ، فإذا لم يحفظ العدل سقط ، بينما يتواصل الناموس القاضي بكون الظلم و عدم العدل فساداً .

فمثلاً ، اقتضى القانون السماوي و الإنساني أن ينفق الأغنياء الموسرون من أموالهم على الفقراء المعسرين ، لإيجاد نوع من التوازن تستقر به الحياة ، و لذلك جاءت الزكاة ، و التي هي الإلتزام الطوعي بقانون التوازن هذا ، لكن إذا لم يلتزم البشر بهذا القانون الطوعي ، فذلك يعني أن يتدخل القانون القسري لحفظ التوازن .

و هنا نلاحظ مثلاً ظاهرة الصعاليك التي كان أفرادها يقطعون الطريق لا ليسرقوا ، و لكن ليستولوا على أموال الأغنياء فيأكلوا منها و يردوا منها على أصحاب العوز و الفاقة .

وهذا تصديق لما أشرنا إليه ، من أن تعطل القانون(الإلتزامي) الطوعي ، يعني حلول القانون (الإلزامي) القسري .

و لو أن الأغنياء التزموا بإعطاء الفقراء عبر الزكاة ، لما حدث هذا الإلزام لهم بأخذ أموالهم عنوة .

الزكاة قانون إسلامي ، أما القانون القسري فإنه إنساني في العادة ، لذلك نلاحظ أن أخذ مال الأغنياء بالقوة قد يكون عند المسلمين كما يكون عند غيرهم ، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقاتل مانعي الزكاة ليخضعهم بالقانون القسري ما داموا لم يلتزموا بالقانون الطوعي ، و هذا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يستنكر على الذي يموت جوعاً كيف لا يمزق الغني الذي يجيعه ، و هؤلاء الصعاليك و منهم الشنفرى و تأبط شرا ، وأميرهم عروة بن الورد ، الشاعر ، و هذا روبن هود في غابات (شيروود) في أنجلترا في أوائل القرن الرابع عشر ، و هذا الكابتن جيمس هيند الذي تحول إلى قاطع طريق بعد استيلاء ذوي الرؤوس المستديرة في أنجلترا عام 1649م ، و هذا روب روي في اسكتلندا في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وهذا باسودي لابو في جبل غارغاغنو في إيطاليا و غير هؤلاء كثير ، لكنهم يجتمعون في كونهم يفرضون القانون القسري بعد أن يتم تجاوز القانون الطوعي .

و الروايات التي تحكى عن روبن هود و أنه كان يقطع الطريق لأجل أن يطعم الفقراء بالإستيلاء على أموال المترفين غير خافية لذلك يقال أن عروة بن الورد و روبن هود يجتمعان في كونهما

قائمين على إنفاذ القانون القسري الإلزامي بعد تعطل القانون الطوعي الإلتزامي .

ولا شك أن الذين قاموا في وجه الولايات المتحدة الأمريكية قبل أحداث 11 أيلول / سبتمبر ، مبينين لها قسمتها الضيزى ، وتجاوزها لمعايير الحق في قانونها كثيرون ، و الذين نصحوا أمريكا بأن تلتزم طوعاً بالقرارات الدولية و بالقانون كثيرون كذلك ، لكن أمريكا أصرت على عدم احترام القانون طوعاً ، فتولد من جراء ذلك ما يلزمها بالحق إلزاماً عبر لغة القوة والإكراه .

و هنا يظهر الخارجون عن القانون .

خاتمة

نؤكد على أن سبق الخارجين عن القانون باجتراحهم لأسلوب المواجهة هذا ، و كونهم طليعة الأمة في ذلك لا يعني أنهم سيكونون القادة على الدوام إلا بامتلاكهم مشروعاً ، لأن الأول لا يعني القائد ، فقد يأتي بعده من يستوعبه أو يحيده ، لذلك تبقى عملية التفكيك هذه ناجحة بقدر الفوضى التي تكتنفها ، والذين يبدون مخاوف من الغد أناس ضيقو عطن و ضعيفو بصيرة ، إذ لا يمكن الحديث عن التركيب و ما يتطلبه من انضباط في مرحلة التفكيك و ما يتطلبه من فوضى لإرباك العدو وإفقاده القدرة على التوقع الصحيح .

و لا شك أن من أهم الملاحظات التي يمكن للمرء أن يسجلها في مفكرته اليوم أن الخارجين عن القانون يتحركون و يتصرفون على غير ما يتوقع منهم الجميع .

إنهم لا يحترمون قواعد اللعبة القديمة ، لذلك لا يستطيع أحد التنبؤ بما يمكن أن يفعلوه .

و أظن أن هؤلاء سيخسرون قوتهم حين يدخلون أطر اللعبة وينتظمون في قانون الصراع المنضبط .

كل هذه الفوضى قوة ، و كل هذه الهشاشة في قدرة القيادات على التحكم في الخارجين عن القانون قوة .

لنفترض أن هؤلاء الخارجين مجدوا شخصاً أو هيئة غير خارجة عن القانون مثلهم ، لتكن هذه الهيئة هي (هيئة العلماء

المسلمين) في العراق ، و صاروا لا يخرجون لها عن قول أو رأي، هنا سينتهي كل شيء ، لأن هوامش الهيئة ضيقة ، بينما هوامش الخارجين عن القانون واسعة و دون حدود ، و لا يمكن للمقيد أن يحكم حركة أو انطلاق الطليق .

إن الذين تعودوا على أن تكون كل الأمور في أيديهم خائفون مما يحدث ، لأنهم لا يرون في أيديهم خيطاً واحداً من خيوط اللعبة ، لذلك يدفعهم فزعهم على مصائرهم و مواقعهم إلى استهجان الفوضى الحادثة .

لكن الخارجين عن القانون يملكون خيوط اللعبة ، لذلك فهم يعرفون حدودها ، لذلك فهم لا يرون ما يقومون به فوضى كما يرى ذلك غيرهم ، بل يرونه انتقالاً لخيوط إدارة الصراع من أيدي غيرهم إلى أيديهم هم .

هناك معايير جديدة لا بد من استيعابها ، كما أن هناك خيوطاً متداخلة متشابكة تقتضي الصبر و عمق التدبر لفهم تداخلاتها ، و لذلك حبّرت هذه الورقات ، أملا في أن تستفيد منها الأمة مما يحدث عبر مشروع واعٍ يستوعب كل هذه الحزمة من العناصر الساخنة ، مشروع يتناغم مع مشروع التفكيك ، لكنه يساهم في ترشيده للوصول بذلك إلى مشروع تركيب واعد.

الخارجون عن القانون ظاهرة تستدعي قراءة تتجاوز ما رقمته هنا ، لكن لتكن هذه طليعة الهلال ، و القطرة الأولى من الهطل، و قد قيل أن ما لا يدرك كله لا يترك جله .

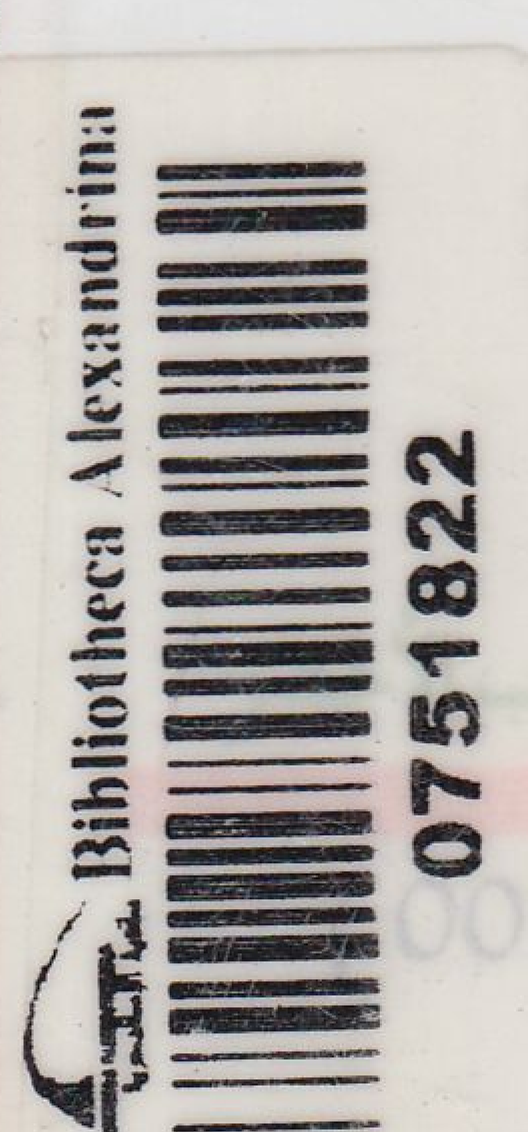
ما يحدث في العراق و يلقي بظلاله على العالم كله لا يجب أن يقرأ على أنه مجرد حدث ، ذلك لأن الأحداث التي تغيّر مجرى التاريخ ، و ترتسم مفاصل في تحولاته و منعطفاته الكبرى لا بد أن ينظر إليها بما تستحقه .

إن كلمة الحدث قد تعني إطلاق الشرطة النار على عشرة متظاهرين ، كما قد تعني أيضا تدمير الأمريكيين لهيروشيما و حسم المعركة مع اليابان بذلك .

هناك الملايين من الأحداث التي يشهدها العالم كل أسبوع ، و بعض هذه الأحداث ينتمي إلى حقبة سابقة ، هي موجودة اليوم لكنها تسير نحو نهايتها ، أما البعض الآخر فينتمي إلى حقبة قادمة هو بالنسبة لها مجرد إرهاصات و مقدمات .

و ليست الأحداث هي التي تصنع التاريخ ، بل الأشخاص الذين يقفون وراء تلك الأحداث أو أولئك الذين يحسنون استغلالها .

هناك اليوم أحداث كثيرة يمر بها العالم ، و هي تتدرج في إطار واحد و تحت عنوان واحد ، هو (التغيير) ... إنها أحداث لا يمكن إدراجها في إطار الحقبة الماضية التي هيمنت فيها القوى الغربية و في مقدمتها الولايات المتحدة على المشهد ، هذه أحداث مختلفة لا تنسجم مع مشهد الحقبة الذهبية الأمريكية .





المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتا...

هاتف: 3403612 - 3403611 (00218 21)
www.greenbookstudies.com
Info@greenbookstudies.net